

المستشرقون ... والاتاريخ !

ان هذه المقالة محض استشارة اسالة قديمة وهي مسالة المستشرقين والدراسات العربية .. وان هذه المقالة - بما هي محض استشارة - محض بداية دعوة الى تطهير الدراسات العربية من طرائق المستشرقين ومنسأهج الاستشراق في البحث وذلك لاسباب كثيرة : منها ان الذهنية الاستشرافية ذهنية خاصة ، فهي لا شرفية ولا غربية ، ولا وسط بين هذا الشرق وذاك الغرب ، ومنهأا لان هذه الذهنية جامعة في مجال انتحالها صفة وصاية شاملة على الفكر ((الآسيو - افريقي)) ، ومنها لان المستشرقين يطلقون بهوضوعاتهم من اللاتاريخ الى اللاتاريخ بلا تصور حضاري يحسون به انهم ينهون الى حضارة موضوعاتهم .. أضف الى هذا ان المستشرقين ، مستعربين وغير مستعربين ، يشلون مصلحة الأوروي الأبيض المترعرع تحت ظل هذه الحضارة المعاصرة التي هي أوروية النشأة ان توخيت حقائق الامور .. وان المستشرق في حقيقة الامر مواطن أوروي يفتنر بالنشأة الأوروية لهذه الحضارة لكنه يعزف عن اتجاهاتها العالمية أكاديميا وانسانيا .. وهذه بديهية نرجو ان لا يفهم منها اننا ضد الأوروي لانسه أوروي ، او ضد الأبيض لانه أبيض ، او ضد الأبيض النصراني الأوروي لانه أبيض نصراني أوروي ، فنحن نحترم ونقدر كيلر ، وغاليو ، وممفيس ، وكوبرنيكوس ، ونيوتن ، ولافوازيه . ونحترم ونقدر شكسبير ، ودانتي ، وجوته ، وسرفانتس ، وتولستوي .. ونحترم ونقدر ديكارت ، وهيفل ، وكانت ، وهيوم ، وجون لوك ، وتوماس هوبز ، وسبنسر .. ونحترم ونقدر بيتهوفن ، وباخ ، وفاكتر ، وموزارت .. ونحترم ونقدر مارلين مونرو ، وبريجيت باردو ، وصوفيا لورين .. ونحترم ونقدر ميخائيل انجيلو ، وليوناردو دافنشي ، وبيكاسو .. وكل هؤلاء أورويون ونصارى و ((بيضان !)) قالوا - بالفعل العبقري الخلاق - للحضارة كوني ! فكانت حضارة الأورويين : حضارة قوة البخار والكهرباء والذرة ، وحضارة حقوق وحرية وتحرير ورفاهية الانسان : أوروييا وغير أوروي ، ونصرانيا وغير نصراني ، وأبيض وغير أبيض .. لكن المستشرقين : مستعربين وغير مستعربين لم يستوعبوا هذه الحقيقة الحضارية استيعابا تصير لهم من تمثله مناهج درس انسانية ضمن حدود اتجاه وحدة حضارة البخار والكهرباء والذرة وضمن حدود وحدة الحياة والتاريخ والحضارة والانسان .. فنحن اذن نحترم ونقدر كل (البيضان) (النصارى) (الأورويين) ونعترف بأففسأالهم وتنتلمذ عليهم - دع عنك أورام الكأيرة - في العلم والأدب والفن والفلسفة وشد ربطة العنق والاكل

بالشوكة والسكين .. لكننا نرفض المنهج الاستشرافي في البحث لانه منهج استطلاعي خاص لا يتوخى من الاستطلاع - جوهريا - غير ما يتوخى المكشف فالفتاح فالمنقب الأوروي المغامر وراء البحار في الافطار المتخلفه عن مواكبة الحضارة المعاصرة من حد منطلق النهضة الأوروية في التاريخ .. ويجب ان لا يفهم من هذه الحقيقة اننا من حملة راية الاسلام ضد النصارى لانهم غير مسلمين ، او اننا من حملة راية العروبة ضد غير العرب لانهم غير عرب ، او اننا من الداعين الى الشك بنوايا المستشرق لانه مستشرق ، فنحن عن هذا ابعد ما نكون ، فالدين لله وللدين رب يحميه ، والعرب عرب مثلما كل الانجليز انجليز . ومثلما الامان المان ومثلما الأتراك اتراك ومثلما كل ابناء قوم ولسان ابناء قوم ولسان : قضية لا يمكن - منطقيا - ان تصبح دالة لنفسها ، ودالة لا تفيد في حدود نفسها غير تحقيق الذاتية والهوية والتعريف .. وليس احد خيرا من احد بمحض اللون او اللغة او المعتقد دينا كان هذا المعتقد او غير دين ، انما - وهذه بديهية مطبوسة معالم التأثير ، أسفا ، في جميع انحاء الدنيا - يتفاضل الافراد وتتفاضل الشعوب بعضها على بعض بفصائل الاخلاص بالعمل والصدق بالمعاملة واحترام حرية القيام بالواجبات والتمتع بالحقوق من اجل تطوير حياة اكثر امنا واقل خوفا نحسو تحقيق مجتمع آمن مطمئن سعيد لافراد يحبون العمل باخلاص ويحبون التعامل بصدق ويحبون الكسب الحلال من العمل الشريف .. لكن هذه اعتبارات تظل - جوهريا - وعالميا - رهينة لا تفك من الاسر الا بتصور انساني متكامل للحياة والحضارة والتاريخ وهو التصور الذي ظلت منه بريئة مناهج المستشرقين وظل المستشرق محض استطلاعي يعتمد اسلوب الخبرة الأوروية واسلوب الاستطلاع الاقتصادي كبداية لاستثمار مالي .. وتداخلت اساليب المستشرقين باساليب المستطلعين الاقتصاديين .. وصارت من هذا التداخل للمستشرقين وجهة نظر تكاملت ضمن وحدة التكنولوجيا والاقتصاد الأوروي : فهنا نطف ! وهناك ادب ! .. وهنا نحاس ! وهناك فلسفة ! .. وهنا زرافة ! وهناك شعر ! .. وهنا فيل له خرطوم !! وهناك فيلسوف اجتماعي !! . وهذه نظرة استطلاعية خاصة ابتعدت بالتصور الاستشرافي عن النظرة الانسانية المتكاملة للحياة والحضارة والتاريخ ، وحسبت مناهج المستشرقين ضمن حدود وحدة التكنولوجيا الأوروية المستطلعة بقصد تنمية حضارة على اسس تايبد تخلف وراء البحار .. لهذا،

ولاسباب اخرى ماثلة ، ولاننا من انصار التصور الانساني المتكامل للحياة والحضارة والتاريخ ، نرفض مناهج وطرائق بحث الاستشراق ووجهة نظر المستشرقين ..

أصف الى هذا ان الاستشراق قد ازدهر في فترة تميزت برسوخ الايمان الاوروبي بالكلاسيك « الاغريقي - الروماني » وسيادة فلسفة الثقة بجردى الفكر « الاسكولاستيكي » .. ولما كانت الثقافة العربية الاسلامية اقرب الى الفكر الاسكولاستيكي وادنى اليه منها الى صف الكلاسيك الاغريقي الروماني ، فلنا ان نستنتج انه لم تكن للمستشرقين من اهتمامهم بالثقافة العربية الاسلامية غير دوافع استغلال استكشافي مرافقة للتحرر الاوربي الفاتح المستكشف فالعمر المستشر فالصديق الحليف المتحالف ..

ولما لم تكن للمستشرقين ثقة كلاسيكية احيائية بالثقافة العربية الاسلامية ، مثل التي كانت للكلاسيكيين الاوروبيين بالثقافة الاغريقية الرومانية ، فقد اتصفت دراسات المستشرقين بميكانيكية النجميـع وتجميع الحقائق مجعدة ضمن حدود الانطلاق من اللاتاريخ الى اللاتاريخ خارج التاريخ .. فالثقافة العربية اذن شيء طريف ينتشر بين اناس ليس عندهم افلاطون ولا ارسطو ولا ابيقور ولا توما الاكويني ولا رنيه ديكارت ، لكن عندهم فلسفة ولاهوت !! وليس عندهم هو ميروس ولا الياذة ولا اوديسه ، لكن عندهم تقريية بني هلال وقصة سيف بن ذي يزن وقصة عنتره .. فعندهم اذن اشياء طريفة تستوجب خلق طبقة طريفة يكون اسمها طبقة المستشرقين الذين لا يجدون عند العرب دانتي والكوميديا الالهية ، لكنهم يجدون عندهم العري ورسائل الغفران ، وعندهم نفظ ، لكنهم بحاجة الى من يستخرج لهم النفظ من بطن الارض ويبعهم السيارة والفاطرة ويقول لهم ان كوميديا دانتي منائرة برسائل غفران العري ، لكنهم يجب ان يهمسوا بهذا همسا لا يسمعه غير العرب ولا يعترف به الا العرب والمستشرقون الذين لا تعترف بهم اوربا حين القضية قضية ثقافة وبناء حياة اكاديمية رصينة ضمن حدود التصور الانساني المتكامل للفلسفة والعلم والادب والحضارة والتاريخ .. فالمستشرق كائن طريف يدرس فكر وادب وفلسفة وفن وتاريخ اناس « طريفيين ! » (فقيرين !) وعندهم تم وشعر ، وبرتقال ونثر ، واعتاب وفلسفة ، وشاي واديان ، وقهوة واخلاق ، وتوابل وتشريع .. ان بعضهم يكتب من اليمين الى اليسار ، وبعضهم من الاعلى الى الاسفل ، وعندهم من الطرائف جمال وفيلة وزرافات ، وادباء وشعراء وفلاسفة .. وان بعضهم اصفر اللون ، وبعضهم اسود ، وان البعض الاخر لا هذا ولا ذاك ، انما هو انسان اسمر اللون .. وان هؤلاء عندهم من الطرائف ثقافة !.. فلنكن اذن هذه الثقافة تحت وصاية شركة تمنح امتيازاً تحت اسم المستشرقين ، وليكن المستشرق مستشرقاً يستطلع مستقصياً جوانب الطرافة في ثقافات لا يؤمن بصفتها الكلاسيكية ، ولا يعتقد بصفتها المعاصرة ، بحال من احوال ايمان واعتقاد المدارس بموضوع بحثه ..

فالمستشرق ، اذن ، غير اوروبي الذهنية في المنهج ، وذلك لان الاوروبي ينطلق من التاريخ الى التاريخ في صلب التاريخ ، مؤمناً بدناميكية موضوعه الحياتية كلاسيكا كان او حديثاً .. والمستشرق غير آسيوي ، وغير اريقي ، لان الآسيويين والافارقة يؤمنون بحياتية وكلاسيكية ثقافتهم ، حين لا يرى فيها المستشرق غير عاديات طريفة لاناس عندهم معادن في بطن الارض ، وثقافة في بطون الكتب .. لكنهم اناس طرفاء ، يكرهون الشغل ، ويكرهون التفكير ، فهم حينئذ بحاجة الى من يفكر ويشغل ، ليستخرج معادنتهم من بطن اراضيهم ، وثقافتهم من بطون كتبهم .. انهم طرفاء ! وانهم بحاجة الى « شركات » تستخرج المصان من بطن الارض ، وبحاجة الى « مستشرقين » يستخرجون الثقافة من بطون الكتب .. فلنكن اذن الشركات ! فكانت الشركات ! ولنكن دوائر الاستشراق ! فكان المستشرقون بكل انعدام ثقتهم بكلاسيكية او ديناميكية او معاصرة مناهجهم التي هي غير

اوروبية ، وغير آسيوية ، وغير افرقية .. انما هي استشراقية .. فنحن اذن لا نرفض المنهج الاستشراقي لانه اوروبي ، بل نرفضه لانه غير اوروبي ، وغير حضاري ، وغير معاصر ، وغير مؤمن بغايلية موضوعه ضمن حدود ديناميكية وانسانية وحدة الحضارة .. امسا المستعربون من المستشرقين فقد اكنفوا من الامجاد الثقافية بالتمشيخ برؤوس العرب مطمئنين الى حقائق منها ان المستعرب اوروبي في نظر العرب .. وفي هذا من الحصانة ما يفني عن كثير من دواعي القلق ، فليس بين العرب من يقف فيستوقف المستشرقين بسؤال فيسال : هل افلاح قط مستشرق فادخل فيلسوفا عربيا في تاريخ الفلسفة العام ، او شاعرا عربيا في تاريخ الادب العام ؟ ان لدينا الف طريفة وطريفة تحكى حول طفافة وهامشية المستعربين ، وهي طرائف كتب علينا الدهر ان تكون فيها شهود حضور وعيان ، واليك واحدة منها في طب الحديث عن هامشية وطفافة المستشرقين فكريا وثقافيا واوروبا ، مفترضين - بحكم الحقيقة - ان برتراند رسل مفكر من الطراز الاول ، ومثقف مدهل ، واوروبي لامع قائد مؤثر ، وعلامة صارخة على مفترق طرق الفكر في القرن العشرين ..

واليك الطريقة المؤثرة التي اثارنا انتباهنا الى هامشية وطفافة المستشرقين فكريا وثقافيا واوروبا :

قال لي زميل مسلم غيور على الاسلام والمسلمين ذات يوم انسه حصل على موعد مع برتراند رسل ، وانه سياخذ معه ترجمة انكليزية للقرآن ويناقش رسل ليحسن رايه بالدين والاسلام ، وليناقش معه خطورة وحيوية الفلسفة الاسلامية ..

وذهب زميلي وتشرف بمقابلة ألع فيلسوف في القرن العشرين ، وعاد مضطربا فآخبرني : ان برتراند رسل لم يقرأ قط القرآن ، ولم يقرأ شيئا عن الفلسفة الاسلامية ، وانه يجهلها جملة وتفصيلا ومن جميع الجهات .. وانه لهذه الاسباب يعتذر عن عدم المناقشة ، فهو لا يريد مناقشة موضوعات مجهولة لديه .. « فهل تعتقد انه ادعى الجهل دفعا لي ونهريا من مناقشة الموضوع ؟ » ، سألني الزميل فأجبته : « اني لا أظن الامر كما تحسب .. لكن وليكن ! هل يستسيغ رسل لنفسه ان يعتذر عن دخول مناقشة بجهله لاساطير الاغريق وفلاسفة اليونان او التوراة » ؟ اجبت زميلي فاتفق معي ان محض تصريح رسل بجهله القرآن والفلسفة الاسلامية ينطوي على « ظاهرة » جذرية بالاهتمام بصرف النظر عن مدى مطابقة تصريح رسل للحقيقة ، والتي هي - في نظري - مطابقة مستحيلة الوقوع ، فرسل ، اضافة الى جميع ما ينصف به ائمة الفكر واساطير الفلسفة في القرن العشرين ، فارىء من الطراز الاول .. الامر الذي يستدرجك الى ان تصوغ « الظاهرة » على نحو ما يلي : « ان أحد وجسوه الضمير الانساني في القرن العشرين غير مكثر بما يفعل المستشرقون ، وان وجودهم وعدمه سواء ، فانهم لم تصل اليه ، ولم يحس بحاجة الوصول اليها ، ولم يجد حرجا في عدم الاكترات بما يكتبون .. فلماذا اذن يكتبون ؟ ولم يكتبون ؟ وماذا يكتبون ؟؟

ودار لي حديث مع واحد من اكبر المستشرقين ، في واحدة من اكثر جامعات الدنيا مجدا وابهة في انكلترا ، بعد مدة اسبوع من حادثة الزميل وتشرفه بمواجهه رسل .. ودار حديثي مع المستشرق الكبير ، السذي يقرأ العربية والانكليزية والفرنسية والتركية والافريقية واللآينية والعبرية ولفات اخرى لا نسعفنا الذاكرة بتذكرها الآن ، حتى ورد اسم « برتراند رسل » ، فاحمر المستشرق الكبير مستنكرا وورد اسم رسل في الصومعة الاستشراقية المحضنة ضد الفكر الحديث ، وقال المستشرق الكبير ما يشير كل دواعي الاشفاق بعد أن قام واقفا وأشار الى رفوف مكتبته العمارة قائلا : « انظر ! انك لا تجد كتابا في هذه المكتبة من تأليف مستر رسل » .. ولم أتعجب لاني كنت قد أيقنت منذ سنين ان اللاتاريخ يرفض التاريخ ، وان التاريخ لا يكثر باللاتاريخ ، وان المستشرقين ينطلقون من

– ظن ما شئت – منطلق استشراقي بذهنيـة استشرافية خاصة ، تتوخى جمع المواد الخام مخطوطات ، واقامة صناعة استشرافية على هذه المخطوطات واعادتها الى العرب مـفـبركة حسب الملامـة الحامية لاعادة القطن منسوجا ، وحسب الملامـة الحامية لتصدير الورق الى بلاد الناس الظرفيين الذين نندهم فـش وتبن وألياف ويستعظمون امر صناعة الورق .. انهم لا يصنعون ماكنة تصنع الورق ، ولا يستوردون ماكنة تصنع الورق ، بل يستوردون الورق .. انهم يخافون الماكنة ويخافون ممارسة التفكير ويرسلون اولادهم الى لندن وباريس ليكوتوا فكرة عن محتويات المخطوطات العربية ، والكتب العربية ، والافكار العربية التي هي مثل النفط بحاجة الى خبرة مستشرق يستخلصها للعرب استخراجا من بطون الكتب العربية المكتوبة باللغة العربية في البلاد العربية ...

ليس من حق المستشرق حينئذ ان يتمشيخ؟! فليتمشيخ اذن المستعربون ، وليكن منهم دراويش ومتصوفة واصحاب طرق ، وليكن لهم من العرب مـرـسـدون في زوايا وتكايا الجامعات المجيدة التي لم ولن تعترف بفيمة أكاديمية لزوايا وتكايا الاستشراق المنطق مـسـن اللاتاريخ الى اللاتاريخ خارج التاريخ ، بقصد تأييد سجن العرب ضمن حدود السور الاستشراقي المشاد بأسلوب الخارج على الحضارة – بغفلة الغافل ، أو بتمثيل المفتعل – من اجل ايقاف التاريخ عند تخوم الفكر الاسكولاستيكي فلا يتعداه الى ما يهدد ما قام الاستشراق من أجله ...

ونحن عند هذا الحد من هذا الحديث اكثر وعيا من أن نعيب على مستشرق صفة تبشيرية في الدين ، أو صفة استخبارية في السياسة ، فلسنا ساسة من فادة الاوطان ، ولسنا من حماة الدين ، انما نحن معلمون بسطاء ، ونحب الفضيلة التي هي عندنا انسانية عامة ، عبر حدود محليات الدين واحداث السياسة ، وانها ان تفكر بصواب .. لكن التفكير الصائب غير ممكن ما لم تحترم موضوعك – منهجيا – فننتقل به – سلبا وايجابا – من التساربخ الى التاريخ في صلب التاريخ ، تحت قبة هذه الحضارة التكاملة انسانيـة .. مع تحية مودة الى المستشرقين ، كل المستشرقين ، مستعربين وغير مستعربين ... الجزائر

اللاتاريخ الى اللاتاريخ خارج التاريخ ، وانهم بما هم كذلك يمثلون ذهنية خاصة سعيدة باللاتاريخ وبالكتابة لقرائهم المستشرقين وذوي الاختصاص من الآسيويين والافارقة غير مفلحين بحقيقة عدم استلقاتهم اهتمام القارئ الاوروبي بما يكتبون ...

فنحن اذن لا نرفض مناهج الاستشراق وطرائق المستشرقين لانها مناهج اوروبيين بل لانها مناهج انـعـزاليـة وطرائق انفصالية وقفت عند حد العجز عن طرح قضية ثقافية تثير انتباه القارئ الاوروبي الذي هو – يجب ان تعرف – قارئ حـصـيف ...

بقي ان نذكر ان المستعربين من المستشرقين مثل العرب ضحية مرحلة تاريخية عزلت العرب عن مواكبة الحضارة المعاصرة وعزلت المستعربين عن قواعد المنهج الصحيح الذي يستلزم دراسة دوائـر الثقافات ضمن اطار تاريخ الانسانية المتكامل .. فالتاريخ مثل الانسان واحد .. لكن المستشرق انسان خاص ، فهو لا كلاسيكي ولا معاصر ، ولا بين بين من هائين الصفتين ، بالمفهوم الحضاري المعاصر .. انما هو – ان شئت الحقيقة – مخلوق طريف يدرس آداب وفلسفات وتشريع وعلوم وتاريخ اناس (طريفيـن !) عندهم جمال وفيلة وزرافات وادب وفلسفة ولفظ وتاريخ وتوابل وشاي وذهب وأسواق لتصريف بضائع الاوروبي المسيحي الابيض الذي عنده مفهوم كلاسيكي راسخ ومفهوم معاصر رصين عن وحدة الثقافة الاوروبية ، وهي الوحدة التي يستمد منها المستشرق دوافع نشاطه في الاستشراق لكنه لا يستمد منها طرائق ومناهج بحثه التي هي لا كلاسيكية ولا معاصرة بل هي مناهج استطلاع لاهثة وراء تصيد الحقائق في كتب اصحاب الفكر الطريف ومنهم العرب الذين عندهم لفظ في بطن الارض ، وعندهم ثقافة في بطون الكتب ، لكنهم يستعظمون أمر الشغل ، ويكرهون العمل ، ويهابون مفسامة التفكير ... فلنبدأ الشركات الاستثمارية اذن ، وليبدأ الاستشراق ، وليكن من المستشرقين مستعربون ، وليكن هؤلاء المستعربون مخلوقات ظريفة لا هم قساوسة ولا هم حاخامات ولا هم من مشايخ الاسلام .. ولنتطلق هذه المخلوقات الظريفة من اللاتاريخ الى اللاتاريخ خارج التاريخ .. فكان المستعربون ! وقضي الامر ! وبدأ الاستعراب حملة استطلاعية استكشافية ضمن حملة البحث عن أسواق ومواد خام ومخطوطات .. وهذا منطلق غير اكاـديـمي وغير ثقافي ، انما هو

تأليف جان بول سارتر

ترجمة جورج طرابيشي

دفاع عن المثقفين

بعد ربع قرن من صدور « ما الادب ؟ » (او « الادب الملتزم ») الكتاب الذي كان فتحا في تنظير وظيفة الادب : الالتزام ، يعود جان بول سارتر الى طرح مشكلة المثقفين في محاولة للدفاع عن دورهم ، بعد طول اهمال وتنكر لهم .

من المثقف ؟ ما وضعه ؟ ما وظيفته ؟ ما تناقضاته؟ ما علاقته بالجماهير ؟ ثم الم يشن الاوان ، بعد حركة ايار ١٩٦٨ وبعد حرب فيتنام ، لاستبدال التصور التقليدي عن المثقف اليساري بتصور جديد ؟ ان هذا الجزء الجديد من « مواقف » سارتر لايجيب على تلك الاسئلة فحسب ، بل يتضمن أيضا سلسلة من المقالات حول حركة الطلبة والشبيبة ، وكذلك عددا من المقابلات التي يتحدث فيها سارتر عن نفسه ، والتي يمكن أن تـجـمـع تحت عنوان : « سارتر بقلم سارتر » .

صدر حديثا

٧٠٠ ق . ل